

## أطفال الرزاقات ، وأطفال المعاليا والزغاوة والداجو وأطفال الشادين— الأمل الوحيد. بقلم: عشاري أحمد محمود خليل

الأحد, 31 آب / أغسطس 2014 10:13

ushari@outlook.com

الشكر العظيم للأستاذ بلة البكري على مقاله القوي في سودانايل 30 أغسطس 2014. "عن الصراعات القبلية: الأرض حاكورة الدولة!". أنبه من لم يقرأ أن يهتم بهذا المقال. أفسر الفكرة الأساسية في مقال الأستاذ بلة البكري بأن الأرض التي يدعي الرزاقات إنها ملك لهم فيجوز لهم طرد "الأخر" منها ، بل هي حاكورة الدولة الحديثة التي يمكن لها أن تنزعها منهم وأن تعوّض المالكين ، الرزاقات ، لنقل. وعلى القارئ أن يرجع إلى أصل المقال.

تكمن قوة المقال في تلك فكرته التثقيفية البسيطة. الفكرة التي تدحض الأساس القيمي للحاكورة في الدولة الحديثة ، وتقدم بديلا لها ، هو أن الأرض ملكية الدولة. وسأتجاوز مؤقتا عن طبيعة الدولة في الوقت الراهن تسيطر عليها عصابات من السرقة. لأنه يجوز التعاون مع العصابات ، لأجل أطفال الرزاقات ، ولأجل الأطفال الآخرين من المجموعات العرقية المتساكنة معهم في حدود "الحاكورة". أريد أن أنظر من خلال عدسة الأطفال في مشكلة قبيلة الرزاقات وعلاقتها المتوترة مع جميع القبائل جيرانها (المسيرية ، والداجو والفور والبرقو ، والدينكا ، إلخ) ومع أغلب تلك المتساكنة بكثافة معها (كالمعاليا والزغاوة). ودون أن أخوض في تفاصيل النزاعات ، وليست الرزاقات على خطأ دائما ، أريد أن أتقدم بمقترح لتطوير فكرة الأستاذ بلة البكري. من منطلق ، الأطفال ، أقل من 18 سنة.

(2)

أرى أن يتم تطوير فكرة الأستاذ بلة البكري. لأجل الأطفال ، تحديدا. على النحو الذي أقتريه. ولا أستخدم الأطفال لاستدرا العطف أو الشفقة أو الرحمة. بل لسبب قانوني له أساس في القانون الدولي المعتمد في السودان الطرف المصادق على الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل. ولا ألتفت لتشويه نظام الإنقاذ لنصوص هذه الاتفاقية وتدابيرها في ذلك مسخ قانون الطفل لسنة 2010. فاتفاقية الطفل الدولية تُلزم الحكومة السودانية باحترام الحقوق جميعها ، وب حمايتها من الأطراف التي قد تنتهكها ، وتلزمها بتنفيذ مستلزمات الحقوق على أرض الواقع. أركز في هذا المقال على "حق التعليم" ، مقرونا بحقوق الصحة والحق في النماء ، وكلها تستتبع الحقوق الأخرى في الحماية والمشاركة. انظر أصل الاتفاقية وتجاهل المسخ في قانون الطفل.

(3)

أركز على الأطفال ، أقل من 18 سنة.

لأنه لا أمل قريب يرجى في شباب الرزيقات. كثير منهم أعضاء في الميليشيات المسلحة ، أو هم معها مؤيدون لها مستحودون بالقبيلية. تغيرت أدمغتهم المجرحة تغلغت في العصبونات عقيدة العنف تستثير الرغبة في إهراق مزيد الدم. موضوعهم مختلف ، والعلاج مختلف. ولا أمل في المثقف الرزوقي الأخرس ، الصامت عن محنة الأطفال. جميع الأطفال. من جميع الأعراق في "دار الرزيقات" ، لنقل ، تحت مغبة الإلغاء اللاحق كما يقول الفيلسوف الألماني هايدغر ، ألمانيا قريبة بالنسب وبالمناصرة مع دارفور. لأنني أرى "دار الرزيقات" المتصورة عند المعتقدين في وجودها خرافة من خرافات النزاع الدائر.

فالاتفاقية الدولية لحقوق الطفل المصادق عليها تلزم السودان بحماية جميع الأطفال في حدود الجمهورية ، جميعهم ، بمن فيهم الأطفال الأجانب (الإثيوبيين والإرتريين والنيجيريين والشاديين وغيرهم). فما بالك بحماية أطفال المعاليا في مدينة الضعين ؟ حمايتهم من الطرد من بيوتهم التي ولدوا فيها في مدينة الضعين. لا لسبب غير أن قيادات الرزيقات ، تحديدا أسرة مادبو الحاكمة ، تُرَّكَّب في مخيلتها أطفال المعاليا ، كما تُركب أطفال الزغاوة ، وجميع أطفال الغير ، على أنهم "غير". في انتهاك صريح لمبدأ عدم التمييز ضد الأطفال.

بالإضافة إلى أن الاتفاقية الدولية المصادق عليها تقول إن كل ما تنفذه الحكومة ، وكل جهة ذات مسؤولية ، من تدابير إدارية وقرارات وأفعال ، في كافة المجالات ، ينبغي أن يكون مشدودا إلى المصلحة الفضلى للأطفال. مبدأ ثابت في الشريعة أيضا ، وفي كل وجدان سليم.

(4)

فالتطوير الذي أقترحه لفكرة الأستاذ بلة البكري منطلقه الأطفال ، وهو ثلاثي المحاور: أولا ، أن يتم نزع الأراضي المتنازع عليها من مالكيها الرزيقات ، لتكون حاكورة الدولة (كما يرى بلة البكري)؛

ثانيا ، أن يتم تعويض الرزيقات بصورة مجزية وكريمة. وفق المحددات التالية:

(أ) أن يكون التعويض في شكل خدمات أساسية في التعليم والصحة والمياه ، لا في شكل مبالغ مالية سيكون مألها معروف. ولا تقصر الخدمات على الرزيقات. بل هي للرزيقات ولكل المجموعات العرقية المتساكنة في "دار الرزيقات" وما بعدها في المناطق المتداخلة معها.

(ب) أن يكون التعويض الخدماتي بقيمة تضاهي قيمة الأرض المنزوعة المنقولة إلى ملكية الدولة.

(ج) أن تكون التعويضات الخدماتية إضافية على الخدمات الأساسية التي تتلقاها المنطقة أصلا من الحكومة.

ثالثا ، أن يتم تخصيص كل العائد من البترول والذهب في المنطقة لصالح المنطقة ، لا تأخذ الحكومة أو

بقية مناطق السودان منه شيئاً (مما سيرفضه السرقة في نظام الإنقاذ ، لكن رفضهم لا يعتد به لاقية له). على الأقل على مدى العشرين عاما الأولى ، لتحقيق النهضة الاقتصادية المتمحورة حول الأطفال . وكما تردد اليونيسف ، المتحدث الدولي الرسمي بدون منازع باسم الأطفال ، تبدأ مكافحة الفقر بمكافحة فقر الأطفال .

(5)

ويمكن تطوير الفكرة في ورقة عمل لتشكيل أساسا لبروتوكول مفصليتم تقديمه لجميع أفراد "القبائل" المتساكنة في المنطقة المسماة خطأ "دار الرزيقات" ، ولقياداتها الراهنة ، وللميليشيات ، وللحركات المسلحة ، وللحكومة البئية.بئية ، لأننا ندرك أن عصابتها لن تقبل ما فيه الخير لأهل السودان. لكن يجب التعاون معها حتى بهذا الفهم ، أيضا بسبب الأطفال .  
قولة اليونيسف المشهورة إنه لأجل الأطفال نتعاون مع الجينوسيدير ، أي ، نتعاون حتى مع أولئك منفي الإباداة العرقية في رواندا وغيرها. ويمكن التمديد لنقول إنا سنتعاون مع الأشبه المحلي ، هم الجنجويد. أيضا لأجل الأطفال ، فعلتها الأمم المتحدة مع موسى هلال المطلوب للعدالة الجنائية الدولية. حين اتفقت معه بشأن تسريح الأطفال المجندين. سلامات وأحضان وضحكات ودعاية له في الأنترنت وفي التقارير الدولية.

وفعلتها الأمم المتحدة مجددا معه حين كانت حاضرة تستمتع بالطرب وبالصخب في حفل زفاف ابنته ، موسى هلال ذاته. فلأجل الأطفال ، نغني ونرقص مع الجينوسيدير والجنجويد. "والفي القلب [يبقى] في القلب" ، من حگم الجنوبيين النازحين الذين كانت حكومة الإنقاذ الغبية تقدم لهم الهدايا وتنقلهم بالبصاات للمظاهرات ليهتفوا "خاين خاين جون قرنق!". قال لي أحدهم إنهم يستلمون الهدايا في الجيب أولا ثم يهتفون خاين خاين جون قرنق. لكن "الفي القلب في القلب" ، جون قرنق دائما.

(6)

هذا الاقتراح الثلاثي القائم على الفكرة المبدعة من الأستاذ بلة البكري ، والتي أطورها بإدراجها تحت المصلحة الفضلى للأطفال ، تضع الجميع أمام محك الاختيار. قبولها كلها أو رفضها كلها ، في سياق . وأرى أن يتم تقديمها على نحو انقطاعي . بمحاورها الثلاثة المتكاملة: (1) نزع الأرض المتنازع عليها ؛ (2) التعويض الكافي والكريم في شكل خدمات في الصحة والتعليم والمياه ، لا في غيرها ؛ و(3) تخصيص كامل عائد موارد البترول والذهب للمنطقة ، بمجموعاتها المتساكنة جميعها من رزيقات ومعاليا وغيرهم ، بمن فيهم المجموعات الشادية .

(7)

إن هذه الفكرة تأتي في مصلحة فقراء الرزيقات ، وهم الأغلبية الساحقة في المنطقة . وفي مصلحة أطفالهم .

بالدرجة الأولى.

لكنها فكرة لن تجد القبول من الأسرة الحاكمة المكنكة في السلطة منذ القرن التاسع عشر. أسرة مادبو. هم أيضا ، لا قيمة لرفضهم. يكون التعاون معهم ، كما التعامل مع الإنقاذ والجنجويدوالجينوسيدير.من منطلق الهم بالأطفال ، جميع الأطفال ، بمن فيهم أطفال المعاليا والشاديين. يكفيهم في أسرة مادبو ما حصلوا عليه من فوائد لتعليم أولادهم أرقى تعليم. وتكفيهم الأرصدة المالية والعقارية التي حصلوا عليها بالتسهيل في سياق رئاستهم للمجموعة القبلية المسماة "الرزقات". ذاتها المجموعة التي جندوا عددا مقدرًا من شبابها الفقراء في ميليشيات ترتكب فظائع.تعتدي على الآخر، تقتله ، وتدمر قراه ، وتشرد نساءه وأطفاله وشيوخه ، وهي تذبج الطبيب في المستشفى ، وتطرد سكان المدينة الحديثة من بيوتهم ومن المدينة.

ولا ننس الألف وخمسمائة قتيلا ويزيد من الدينكا المدنيين حرقوهم وقتلوهم في يوم واحد في مذبحه الضعين 28 مارس 1987. ولا ننس جلب الميليشيات بقوة السلاح آلاف نساء الدينكا وأطفالهم كرقيق لاستغلالهم في الرعي والزراعة والخدمة المنزلية ولتقديم الخدمات الجنسية. ولا ننس نهب أبقار الدينكا وجميع ممتلكاتهم. مما عبر لي عنه أبلغ تعبير محرر الرقيق مانجوك جيينق مانجوك:

وأهلنا دا الرزقاتلمنقامجهرائنين 1986جاشيلسكر.بشيللباستاعنسونان.

جبونة كلقبناعوكويسشنونبتاعوكويس. مرتبةزيداكلوبشيلو.أنابراعيفيعيونى. أناماكذببقولديهوسمعفياًداني. الشالأنابراعي.بشيللحديجمسيةبتاعي. شالوأياحاجة فيبلدنا هناكماخلوه. شالوابتاعالمويةالبشرببيدا. كلوهمشالوه. حمرما بشيلحاجةزيدا.

كله أعلاهوقع تحت قيادة أسرة مادبو لـ "قبيلة" الرزقات.

وكله جرى وبعضه يظل يجري تحت سمع وبصر مثقفالرزقات القبليين. ألسنتهم الحداد مقطوعة وأقلامهم الفصيحة ملجمة. حين يتعلق الأمر بهذا المسكوت عنه. المذبحة والرق.

ومنين هؤلاء المثقفين من وجد طريقه إلى المدرسة أصلا بسبب أن والده ركب جوادا وحمل الجيم أو الكلاج في معية أعضاء الميليشيا في غزوة لجلب الأطفال والنساء الدينكا رقيقا. ليرعوا الأغنام والأبقار بدلا عنه هو مثقف اليوم في طفولته في الثمانينات والتسعينات. وليزرعوا بدلا عنه ليتابع دراسته اليومية. وليغسلوا أوساخه وملابسه. ولتطحن النساء المسترقات زوجات الرجال الدينكا الذرة في المرحاكة لتغذيته ، المثقف.

جميع هذه الواقع ثابتة في الأوراق في محاضر بلاغات مركز شرطة الضعين خلال الفترة 1986-2000 وما بعدها. وثابتة في أوراق القاضي ود المبارك في محكمة الضعين. وفي أوراق علي الرضي وحماذ بشارة من المحكمة الشعبية. وثابتة في أوراق سيواك ، صنعة الإنقاذ ترى وقائع الرق وتدعي بالمغالطة وبالمكر أنه اختطاف متبادل. وثابتة بالتفصيل الممل في أوراق لجنة أبناء سلاطين الدينكا برئاسة جيمس أقوير. وفي تقارير رئيس القضاء الحالي في جنوب السودان شان مدوت ، كتبها حين كان منتدبا من القضائية السودانية للعمل مع منظمة اليونيسيف. كنت رئيسا للبرنامج في اليونيسيف فذهبت إلى أبيل أير ليرشح جنوبيا يعمل معي في البرنامج ، فرشح شان مدوت وفرغته القضائية. وكله ثابت أيضا في الذاكرة الجمعية

المحلية للمواطنين على اختلاف أعراقهم في ما يسمى "دار الرزيقات". وكذا يمكن لهؤلاء المثقفين من الرزيقات عبور الحدود الدولية ذات القدود إلى ما وراء سفاهاة. ليلتقوا في مريال باي وأشورو وقوق مشار وغيرها من القرى بالنساء اللاتي كن مسترقات لأعضاء الميليشيات الرزيقية. غرضي هو استفزاز فكر مثقفي الرزيقات. بمن فيهم من يحمل اسم مادبو. أفهم ورطتهم الثقافية. وأتعاطف معهم. لكن عليهم التزاملا فكاك لهم منه. أن يمسكوا بناصية هذا الأمر ، بالأمانة العلمية وبالشجاعة الأخلاقية. عندئذ ، سيجدون أنفسهم يُخضعون للانتقاد وللتشريح بدون تخدير ما يسمى بقبيلة الرزيقات ، وما يسمى بالفرسان ، وما يسمى دار الرزيقات. وفي ذلك خلاصهم من عدم الرغبة في التفكير. التفكير الانتقادي كالمقدمة الضرورية لاندراجهم مع الآخر في التغيير. خاصة في هذا المنعطف الجديد بعد انفصال الجنوب ، وبعد ردع ميليشيات القبيلة بندقية أكبر. ومنعها من الاعتداء مجددا لنهب أبقار الدينكا أو لاسترقاق النساء والأطفال.

(6)

ستفرض أسرة مادبو الحاكمة فكرة نزع الأرض وتنقيتها إلى ملكية الدولة. وكذا ستفرض ، بالدرجة الأولى ، تقديم الخدمات الأساس في التعليم الذي سيضع جميع أطفال الرزيقات وجميع أطفال كل القبائل الأخرى فيما يسمى بـ "دار الرزيقات" في المدرسة. لأن تعليم جميع أطفال الرزيقات ، وجميع أطفال المجموعات الأخرى في المنطقة ، سيعني مباشرة بداية النهاية لحكم أسرة مادبو التي ورّثت السودان رق القرن التاسع عشر ، وعادت في نهايات القرن العشرين تورّثه الرق مجددا. بقيادة "الفرسان" ، قادة الميليشيات.

(7)

هذا البرنامج لوضع جميع الأطفال في سن الدراسة في المدرسة ، وأقصد جميعهم ، يمكن إنجازه خلال عامين. وهو برنامج قابل للتنفيذ ، بنجاح. وبمقدور منظمة اليونيسف أن تقدم الدعم الفني الضروري لوزارة التربية والتعليم المحلية ، بعد إعادة تثقيف موظفيها ، لتنفيذ هكذا برنامج. خلال عامين. وفي تعليم أطفال الرزيقات في معية أطفال الزغاوة والبيجو والمعاليا والبرقد والهوسا والجوامعة ، والتشاديين ، وجميعهم يعيشون حاليا في "دار الرزيقات" ، مفتاح لنشأة العقلانية والفكر الديمقراطي في المنطقة. بديلا للتجهيل الذي فرضته أسرة مادبو والعمد والأسر المستفيدة من "القبيلة" على السواد الأعظم من فقراء الرزيقات ، هم الأغلبية.

(8)

إن فكرة نزع الأرض لتكون حاكورة الدولة فكرة مستنيرة. وخطيرة. على النظام القبيلي القديم. وهو نظام ينتج خطاب "القبيلة" ويعتاش به. لأن هذا الخطاب يمكّن النظام القبيلي من تمرير خدعة "الحاكورة". ومن ثم أرى ، أيضا لأسباب سياسية واضحة وموضوعية ، أن تقاوم خطاب "القبيلة" وممارساتها. وأن

نرفض اللغة التي تصف دورات العنف الإجرامي المنظم الدائرة بأنها من نوع "الصراع القبلي" ، حبي ، أفريقي ، عربي ، مراشقاتي ، بتاع مؤتمرات قبلية ، وكلامات قبلية . يريدون التسلسل بالخطاب القبلي الزائف لتثبيت مقولة "الحاكورة" . فما دامت هنالك "قبيلة" ، عندهم ، فهنالك حاكورة . والذي أقوله ، إنه لا توجد "قبيلة" . وإن "القبيلة" في هذا السياق المحدد كيان يتم اختراعه وتركيبه وتخليقه وتعبئته لتكريس الترتيبات القائمة لمصلحة أسرة مادبو ، وأسر القيادات المحلية المستفيدة ، ولمصلحة الأسرة الحاكمة في حزب الأمة ، ولمصلحة عصابات حكومة الإنقاذ في حروبها في دارفور .

فلننس سخف "القبيلة" . ولننظر في مظان للحل خارج الأطر التي تُنظر للقبيلة المُختلقة ، بما فيها ذلك إطار د . عبد الله علي إبراهيم بتخريماته المتزاكية لسد القدود في فكرته المِهْبَّبة عن خصوصية الريف ، في مقاله الممتاز اللازمة قراءته (الرزيقا والمعاليا: أخرج الريف أنقاله) . أقول له ، حين يكون هنالك أطفال ، لا يوجد ريف ، ولا توجد قبيلة ، ولا حاكورة .

(9)

و حين يكون جميع أطفال الرزيقات في المدرسة ، في معية أطفال الآخرين ، وحين تكون هنالك خدمات الصحة الأساسية ، والماء ، لن يخدم أي شاب من خريجي المدرسة الثانوية في ميليشيات الرزيقات . ليست هذه أو هام ولا أحلام . استحقاقات .

سنرى هؤلاء الشباب من الأصول الرزيقية ومن المجموعات الأخرى يتحدون الترتيبات المرتكزة على فلسفة "القبيلة" والمغذاة بخطاب القبيلية .

وسنراهم يرفضون خرافة "الفرسان" .

فتنتهي "قبيلة الرزيقات" كالكيان المختلق . بجسدها الميليشياتي المحارب . ويبور نوع خطابها العنصري في الفيس بوك وفي صفحات الأنترنت المتناثرة .

وستختفي عن الأنظار تلك خريطتها الجغرافية المفارقة للوقائع ، بالمغالطة . لأنها تصور ما تسميه دار الرزيقات مساحة خالصة ومخلصة من جميع مكوناتها العرقية غير الرزيقية ، من الزغاوة ، والمعاليا ، والبرتي ، والبرقد ، والدينكا (بمن فيهم النساء المسترققات) .

وسياتي جيل مختلف من بنات الرزيقات وأولاد الرزيقات ، في معية بنات وأولاد المجموعات الأخرى . جيل يعيش في سلام فيما كان يسمى يوما بقوة السلاح وبالعصي وبالسيوف "دار الرزيقات" .

بنات وأولاد يعرفون أنهم من أصول مُدعاة في رزيقات وزغاوة ومعاليا وبرتي وبرقو وداجو وبيجو . بعض منهم من أصول الرق . وآخرون لا يعرفون غير أنهم سودانيون . قد تكون في ذاكرة بعضهم بقايا من دَخَل الرزيقات وثقافتها "المختوفة" بالهجنة .

لكن التجربة الحياتية المعاشة يوميا ومستقبليا ، في تلك خلطة البنات والأولاد ، بتعقيداتها ، ستكون تجربة بألوان حديقة . ألوان التعددية الجديدة ذات السحنات الساحرة بتمايزها . التعددية ذات الهويات

المتغيرة كيفما يقتضي حال الشباب. في حركتهم بالثقة وبالتفتح في مساحات متداخلة ومتطابقة. مساحات تمتد من أبو مطارق عاصمة الرق في الماضي إلى آخن في ألمانيا. آخن التي كانت في العام 1987 خرجت في مظاهرة صغيرة من عشرة أشخاص تندد بالرق في دار رزيقات أمام الزائر وزير المالية في حزب الأمة ، د. بشير عمر.

هذه هي رؤية الحل. يكون تحقيقها بإلغاء نظام ملكية القبيلة للحاكرة وتنقيتها للدولة ، مع التعويض الكريم الكافي ، وبتخصيص موارد الذهب والبتروال في المنطقة لأهل المنطقة. وكله في سياق فهم انتقادي للقبيلة وقياداتها ، يحلل خطابها ويكشف خدعتها بلغة القبيلة وتحالفاتها مع سلالة الإنقاذ ومع الميليشيات لغرض الاستحواذ الانفرادي بتلك موارد الذهب والبتروال.

عشاري أحمد محمود خليل

ushari@outlook.com